يوميات مهرجان

عبد الحكيم قاسم

أكتب من الكافيتريا المخصّصة كملتقى للوفود المدعوة من رجال الصحافة وصناعة الفيلم في انحاء الدنيا . المكان عابق بدخان اللفائف وروائح العرق والطعام والمشروبات . الكل آكل أو شارب أو مدخّن أو متحدّث بعنف وغضب أو بانفعال وفرح . هذا جهاز بشري هائل مصنوع من كل هؤلاء معاً . ناس يوحّدهم نسق وهدف . ناس يمثلون ثقلاً هاماً في هذه الدنيا . قد يحسّ الواحد إزاءهم بالخوف أو الكراهية والعداء . قد يحس الواحد إزاءهم بالحب. أياً ما كان الأمر، فهم كلّهم، بكل مذاهبهم السياسية والفنيّة والاجتماعية ، هم جميعاً يكوّنون كلا واحداً باهراً وهاماً . وهم يملكون على حياة كل فردٍ منا أثراً لا يمكن الفرار منه أو تجنّبه بل يجب التفاهم والتعامل معه . هؤلاء هم ناس صناعة السينما في العالم . أجلس الآن وأحسّهم حولي . وجوه من كل أجناس الدنيا ومن كل ألوان البشر . ملامح تحمل كل ما عرف القلب من انفعالات . أحس بهم حولي بعد أن تقدّم المساء وبعد أن تصرّم جل أيام الاحتفال وبعد أن تصرم بدم مرهق من العمل . أحس بهم يغالبون التعب ، ينفضونه من على الملامح ومن على الكلمات ليحتفظوا بفعاليتهم في الأوج حتى النهاية . هذا الاحساس يضع في قلبي لوناً من الرثاء والحب . هل يوجد أجمل من انسان يعمل بكل ما في عروقه وقلبه من انفعال وحماس ؟

*

مهرجان برلين الدولي للفيلم يمثل بالنسبة لي تجربة شخصية خاصة . وقبل أسابيع كانت برلين غارقة تحت أحمال الثلج الذي تراكم في الشوارع واتسخ حتى أصبح شيئاً قبيحاً يثقل على قلوب الناس بالضيق والبرد . الناس تنصت كل مساء الى المذيع ، يرونه على شاشة المرناة يقف مهذباً خجلاً أمام الخرائط يشير اليها بعصاه ويتنبأ بحالة الجو معتذراً عن كل ما يعانيه الناس كأنما هو مسؤول عن تصاريف البرودة والدفء . لكنه في ذلك المساء كان فرحاً يبشر بصعود خط الزئبق في زجاج مقياس الحرارة . وأحس أن المدينة كلها تتنفس الصعداء .

مثل زحام الناس أخرج أنا وزوجتي وأولادي لنزهة صباحية في الشارع الرئيسي لمدينة برلين « كور فورستندام » . ربما نأمل مثل الناس الآخرين أن نستقبل بشائر الربيع في منتصف الطريق . واذا بي أرى حاملات الاعلانات وقد ألصقت عليها لوحات تعلن عن المهرجان الثاني والثلاثين البرليني للفيلم . في هذه اللحظة تحرك في قلبي الفرح . وفي ذات اللحظة تحرك في قلب زوجتي الخوف . نعم . تلك أيام عشرة أو أكثر أكون فيها غائباً عن البيت تماماً بجسمي وعقلي وقلبي وروحي ، يستغرق المهرجان كل وقتي وكل عواطفي ، وكل قدرتي على التفكير والعطاء . تبادلنا أنا وزوجتي نظرة ، في عينيها العتاب وفي عيني الاعتذار الخجلان . ماذا أقول ؟ لا بد مما ليس منه بد .

*

هذه هي المرة التاسعة التي أحضر فيها هذا المهرجان . أحاول أن أتذكر كل الشعارات لكل المهرجانات السابقة . كان الشعار مرة فطيرة صغيرة في داخلها شريط فيلم سليلوزي . كنت كل مرة أرى فيها هذه الصورة أخرس اذ أتصورني أقضم في الفطيرة وأمضغ شريط السليلوز . وكان الشعار لها صورة النصف الأعلى لجسم عضلي مليء بالشعر يحمل كل يوم وجه ممثل أو ممثلة مشهورين لم أحب ذلك هذه المرة ولا غيرها في المرات الثماني التي عايشت فيها المهرجان . هذا العام رسموا مصباحاً كهربائياً يشع من داخله اسم المهرجان . طيب يا سيدي . هذا شيء غير مثير وهو أيضاً غير مزعج .

لكن المهرجان يكون في كل مرة شيئاً بالغ الاثارة . ناس من أركان الدنيا الأربعة ، من كل مذهب في الفن والفكر ، من كل نظام سياسي أو اجتماعي ، من كل لون وعرق ، آلة بشرية مائلة مشغولة بشيء واحد هو صناعة السينما في العالم . قضية تنشغل بها حتى تذهل عن المكان وعن الوقت .لكم أشتاق لأن ألقي بنفسي في الخضم . لكم أحلم بالأيام القادمة من الثاني عشر حتى الثالث والعشرين من فبراير (شباط) .

في كل عام وبعد عرض أول أفلام المهرجان تقام لكل المدعوين حفلة استقبال كبرى في فندق من أكبر فنادق المدينة أو في قاعة من أكبر قاعاتها في أول مساء من أماسي أيام المهرجان . أتذكر حفلة استقبال العام الماضي . أقيمت في فندق برلين العالمي . حينما

خطوت داخلاً غرقت في بحر من ضوء كريستالي فردوسي كأنه حلم من الأحلام . حشد من أجمل فتيات برلين ، شقراوات شاهقات يحملن الصواني المحملة بالكؤوس ويخطرن حولي كالملائكة مشيت تحت ثريات النور داخلا . بوفيه الطعام طوله مئتا متر وفيه كل ما يخطر على القلب من طعام وحلوى . أربع فرق موسيقية تعزف في مختلف أبهاء الفندق . جو من الانطلاق وسقوط الحواجز بين البشر يكاد ينسي المرء أن في الدنيا خلافات سياسية أو دينية أو حروباً أو أحقاداً . الجماعات تتقارب وتتبادل الاسماء وأنواع المهن وتتكلم عن آخر المهرجانات التي رأتها وشاركت فيها وعن المهرجان الذي بدأ تواً ، عما يأملون وعمّا يخافون وعن الذين يخططون له من كتابة أو تجارة أو صناعة . ثم مع ذلك كله تكون الحكايات الصغيرة والفضائح الصغيرة . بعضها إنساني ورائع . بعضها مؤلم وجارح وبعضها مضجر ومملّ . آه أيتها الحياة . كل الأنهار تجري إلى بحرك الخضم والبحر ليس بملآن . أنا أيضاً كانت لي في العام الماضي حكاية صغيرة . لا زال في أذني صوتها وعلى يدي ملمسها ولا زال في قلبي ذلك الألم . ألم من ينظر إثر ذكريات مبارحة . . ترى هل تأتي هذا العام . أتأمل إعلان المهرجان شارداً وزوجتي تتأمل عيني . تريد أن تغتصب حقيقتي . وأنا أكره العنف حتى في نظرة متسائلة من عيني إنسان .

*

أنا لست صحفياً مفوضاً من صحيفة ما . إنما أنا كاتب مصري أعيش في الغربة معلق النظرات بوطن تعيس . وعليه فانني لست مدعواً لهذا المؤتمر . لا أملك بطاقة دعوة ولا تذاكر مجانية لحضور العروض السينمائية . ذهبت الى دار العرض الرئيسية لأشتري تذاكري للأيام وللأفلام التي أريد أن أراها . قبل أن أتخذ قراري ذهبت إلى ما يسمى : Info laden أو تلك الدكانة الصغيرة التي توجد فيها المواد الدعائية في المهرجان الوشيك . أخذت في يدي مجلة ومشيت أتصفحها في الشارع المؤدي الى دار العرض الرئيسية (تسو بالاست) .

إن الجهة المنظمة للمهرجان والتي تنظمه كل عام هي مؤسسة برلين للمهرجانات وهي هيئة خاضعة لحكومة برلين . أي أنها ليست شركة استثمار خاص. لكنها في عملها كله تخضع المبدأ ربحية المشروع . وذلك هو المبدأ المتحكم في كل الهيئات الخاضعة للحكومة في كل ألمانيا . وحكومة برلين إذ تدخل السوق كمستثمرة لا تهدف الى تحقيق الربح إنما الى تحقيق أهداف اقتصادية واجتماعية وسياسية بحجم الرأسمال الخاص عن تحقيقها . وهي تستخدم مقياس الربح المادي كمقياس لنجاح المشروع فقط ومن الناحية الادارية . الأهداف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي تهدف مؤسسة برلين للمهرجانات هي انعاش مدينة برلين اقتصادياً وهي كذلك مساعدة صناعة السينما الالمانية وتقديم الخبرة لها ، ثم استخدام المهرجان السينمائي وغيره من المهرجانات لدعم ودفع السياسة الثقافية بل والسياسة الخارجية لألمانيا الاتحادية . تلك حقائق لا ينبغي أن تنسى اذا كان المراد فهم دور المهرجان وأسلوبه وقراراته .

لكن الى جوار مؤسسة برلين للمهرجانات تشترك في المهرجان هيئات أخرى . تراقب الأفلام المعروضة وتقيمها انطلاقاً من وجهة نظرها . ثم تمنح جوائز في نهاية الأمر لما تراه من الأفلام محققاً لأغراضها وأهدافها . تلك الهيئات هي :

- هيئة الحلفين البروتستانتية العالمية للسينما INTERFILM ●
- المنظمة السينمائية الكاثوليكية العالمية OCIC ●
- الاتحاد العالمي لفن السينما CICAE ●
- اللجنة العالمية لنشر الفنون والآداب بواسطة السينما CIDALC ●
- هيئة السينما لمؤسسة الطفل في الأمم المتحدة . UNICEF ●
- صحيفة (مورجن بوست) أو (بريد الصباح) البرلينية MORGENPOST ●
- الاتحاد العالمي للصحافة السينمائية FIPRESCI ●

ومؤسسة برلين للمهرجانات تنظم إلى جانب المهرجان الأساسي للفيلم مهرجاناً لأفلام الشبان ومهرجاناً لأفلام الأطفال . ثم هي تنظم أيضاً عرضاً إعلامياً عن السينما في مختلف بلدان العالم وسوقاً للفيلم تكون فيها وسيطة بين المنتجين وأصحاب دور العرض في سوق السينما العالمية التي لا تركد أبداً . وأخيراً تنظم عرضاً تذكارياً عن أمجاد صناعة السينما في الأيام الغابرة . وهذا العام خصص هذا العرض تكريماً للنجم العالمي جيمس ستيوارت وإعادة أهم أفلامه بين العروض التذكارية .

والمسابقة الرئيسية Wettbewerbsprogramm تعرض أفلامها في قاعة سينما تسو بالاست Zoo - Palast وتعاد في اليوم التالي في قاعة السينما المجاورة جلوريا بالاست Galoria - Palast . أما افلام الشباب 12. International Forum des jungen Films فتعرض في قاعة سينما ولفي التي تبعد حوالي خمسمائة متر عن قاعة عرض الأفلام المشتركة في المسابقة الرئيسية والتي تقع في مقابلتها قاعة سينما آكي AKI التي تعرض فيها الأفلام الاعلامية عن صناعة السينما في البلدان المختلفة وبقيتها تعرض في سينما باريس في شارع كورفورستندام . وفي مقابلها سينما آستر ASTOR التي تعرض الأفلام التذكارية مزيّنة واجهتها بصورة عملاقة للممثل جيمس ستيوارت . أفلام الأطفال تعرض في ثلاث قاعات صغيرة محيطة بالمنطقة . أما افلام السوق فتعرض في ستوديوهات خاصة في المبنى الرئيسي المخصص للمهرجان والذي فيه الكافيتريا ومكاتب البلدان والشركات المشتركة وصناديق الصحفيين ومكاتب الاستعلامات وكل ما يتعلق بادارة المهرجان . هذه الاستوديوهات لا تدخل الا بدعوى خاصة من المنتجين أو أصحاب دور العرض الراغبة في الشراء .

هذه الصورة كلها أطالعها في كومة الأوراق التي في يدي وأنا أمشي أمام المحلات التجارية في شارع بودابست . وهي صورة أعرفها من سنوات عديدة أعايش فيها هذا المهرجان الذي ستبدأ الليلة آلته الهائلة في الدوران . أحس بالدوار لمجرد تخيلي لدوران آلة المؤتمر . أفلام تعرض . أكوام من المعلومات عن هذه الأفلام .

مؤتمرات صحفية يعقدها ممثلون أو مخرجون أو منتجون أو تعقدها إدارة المهرجان نفسه . أخبار تتحرى عن زيارات لنجوم أو كواكب سينمائية . كتيبات عن صناعة السينما بشكل عام أو في بلد من البلدان ، متاحف ومعارض تقام بمناسبة المهرجان وأهمّها هذا العام معرض صور المخرج الايطالي الراحل بازوليني . منظمات سياسية أو اجتماعية تنتهز فرصة المهرجان لتقوم بالدعاية لأفكارها ومبادئها ونشاطاتها . ثم إلى جانب ذلك العلاقات الانسانية التي تقوم بكل أبعادها بين هذه الكمية من الخلق المثقف التي حشدت من جوانب الدنيا للاشتراك في هذا المهرجان . ينتابني الدوار وأنا أفكر في هذا كله . وأسأل نفسي هل بمكن لجهد واحد فرد أن يقدم للقارىء العربي صورة كاملة لجوانب هذا المهرجان ؟ ان هذا مستحيل . وأي جريدة ألمانية هنا تريد أن تغطي أخبار المؤتمر إنما تحشد فريقاً كبيراً من المخبرين الصحفيين والنقاد والمصورين . هذا الى أنني لست صحفياًانما أنا كاتب عربي . ألقي بنفسي في التجربة وأحدث قارئي بما تركته في نفسي من أثر . حديثاً خاصاً هامساً ودوداً .

وعليه فقد اتخذت قراراً لم أراجعه أو أمتحن صحته . سأقتصر على مشاهدةأفلام المباراةالرئيسية . ثم أقرأ تعليقات الصحف الالمانية على المهرجان ثم أكتب عمّا عاينته كمشاهد عادي من العالم الثالث . ذهبت ووقفت في الطابور الطويل أمام سينما تسو بلاست لأشتري تذاكري .

*

اتصلت بفندقها . إنها مدعوة ومحجوزة لها غرفة في الفندق ولكنها لم تصل بعد . أتصل بالفندق كل نصف ساعة لأحصل على الإجابة نفسها . في الساعة الرابعة مساء من يوم إثني عشر فبراير (شباط) بدأت العروض بفيلم (مئة مليار دولار) للمخرج الفرنسي الأرمني الأصل هنري قرنوي . ثم أسرعت لأرى ماذا يقول المخرج في مؤتمره الصحفي . بعد ذلك أسرعت الى مكتب الاستعلامات لأسأل عنها . قلبت السيدة في أوراقها ثم أنبأتني أنها اعتذرت عن الحضور في آخر لحظة . جرجرت قدميّ منصرفاً . مشيت متفكراً . في العام الماضي تعرفنا في حفلة الاستقبال الافتتاحية ثم ظللنا معاً طول مدة المهرجان لم نفترق لحظة واحدة . نشاهد الأفلام ونتبادل الملاحظات . نقرأ أكوام المواد الاعلامية . نجري من مؤتمر إلى مؤتمر حتى ساعة متأخرة من المساء . حينئذ نترك أنفسنا لمدينة برلين تحضن تعبنا الى صدرها . لا زلت أذكر هذه الانسانة . لا زلت أرى أصابعها حول كأسها ووجهها المجهد . لا زلت أسمع بحة صوتها وهي تحكي لي حكايات صغيرة لطيفة من يومها الطويل . لا زلت أذكر ذكاءها الأنثوي الخارق وهي تعلق تعليقات حادة على رجال صناعة السينما ونجومها . عن الصناعة نفسها في هذه الدنيا بمعسكراتها السياسية وخلافاتها الظاهرة والخفية . . . هكذا ظللنا معاً حتى انتهى المهرجان وأعلنت الجوائز .

ليس لدي وقت ولا رغبة لحضور حفلة الافتتاح هذا العام . وسأخوض تجربة هذا المهرجان دون وجودها الى جانبي . لا بأس . تركت نفسي للدوامة . أشاهد الأفلام . أقرأ كومات المواد الاعلامية . أسرع إلى المؤتمرات الصحفية . أشرب الشاي والقهوة وأتصبّر بالفطائر في كافيتريا المهرجان أو في المقاهي القريبة . أقابل المعارف والأصحاب والأحباب من الوطن ومن كل بلد . أرى وجوها من كل لون . أتكلم كل اللغات التي أعرفها وأيضاً تلك التي لا أعرفها . هنا معرفة لغة أخرى شيء عظيم وشيء أعظم ألا يعرف الواحد لغة محدّثه . حينئذ يكون التفاهم باليد والرجل والرأس وكل شيء آخر . ويكون ضحك مجلل اذا تم الانتصار على حاجز الخرس . . . هكذا حتى انتهى المهرجان ووزعت الجوائز .

*

لن أسوق تقريراً إخبارياً عن الجوائز وتوزيعها ، فقد تكفلت بذلك الاذاعات والجرائد اليومية . فقط أريد أن أذكر بما سقته في سياق الكلام من أن مؤسسة برلين للمهرجانات ليست مؤسسة مكرسة لخدمة صناعة السينما ، بل هي مؤسسة تقوم لخدمة مصالح المانية أشرنا اليها . اذا وضعنا من هذه المصالح إنعاش برلين اقتصادياً وتدعيم صناعة السينما الألمانية جانباً ، وهما أمران يتحققان بمجرد قيام مهرجان ناجح ، اذا وضعنا هذا الأمر جانباً بقي لدينا أن مؤسسة برلين للمهرجانات انما هي في خدمة السياسة الثقافية لالمانيا الاتحادية ، بل وفي خدمة سياستها الخارجية . ومن يعرف قليلاً عن سياسة المانيا الاتحادية الخارجية وسياستها الثقافية ومن قرأ عن نتائج المهرجان أو سمع بها سوف يبتسم ابتسامة صغيرة .

إن صناعة السينما تتوجه إلى جمهور عالمي قد تفرقه الخلافات السياسية والعقائدية والحدود الجغرافية ، لكن توحده أنه جمهور من البشر يملك حساً حيوياً بما هو انساني وما هو معادٍ للإنسان ، بالعدالة والظلم ، بالضارّ وبالنافع . وصناعة السينما ـ ككل فن ـ تريد لنفسها العالمية ، وعليه فهي بطبيعتها تكره كل ما يحدّ من عالميتها ويحبسها في نطاق جغرافي أو عقائدي أو حزبي . لكن تحرر صناعة السينما من كل هذا ليس سهلاً . فالفيلم بطبيعته أكثر من أي عمل فني آخر محتاج إلى تمويل ضخم والى فريق من الفنانين والتقنيين كبير . وليس من السهل ، بل انه يكاد يكون من المستحيل أن يوجد رأس المال المتحرر من أي ارتباط بمصلحة سياسية أو عقائدية أو جغرافية . كذلك يصعب وجود فريق كبير من العاملين يسمو وعيه بفن السينما عن أي ارتباطات سياسية أو عقائدية أو إقليمية .

لكن صناعة السينما تكافح ضد كل ما يعوقها عن تحقيق عالميتها . وسوف يكون هذا الصراع هو محركها الأساسي لوقت طويل قادم . بهذا الوعي تذهب صناعة السينما إلى المهرجانات ليس في المحل الأول جرياً وراء الجوائز ، بل سعياً وراء جمهورها تريد أن تفتنه وتبهره وترضيه وتثيره . وهي في كل مهرجان تمتحن قوتها وفعاليتها وتجرب كل فنونها وأفكارها ومستحدثاتها . وهي في كل مهرجان تتعلم كثيراً وتحشد تجاربَ تضعها في خدمتها في تطوير مستمر لا يتوانى لحظة واحدة .

وعليه ففي حدود علمي لا يوجد مهرجان للفيلم يمكن أن يكون

هدفه خدمة صناعة السينما فقط متجرداً من أي مصلحة أخرى . لكنه في ذات الوقت لا يوجد مهرجان سينمائي لا تفيد منه صناعة السينما فائدة كبيرة في تجديد نفسها والاقتراب من جمهورها عبر كل العوائق . فما الذي كان لدى السينما العالمية لتقول لجمهورها في مهرجان برلين السينمائي الثاني والثلاثين ؟ من ناحية الفن السينمائي لم يكن ثمة جديد خارق يستحق التنويه على حدة ولذلك سأتناول أفلام المسابقة من وجهة القضايا التي عرضتها وبترتيب أهمية هذه القضايا من وجهة نظري الخاصة .

*

الفيلم الذي أبدأ به من إخراج جون بالدهام . وهو قائم على مسرحية بذات الاسم : « انها حياتي أنا ؟ Whose life is it anyway » لا زال الفيلم يحمل آثارها حيث يقوم على ركيزتين : قوة الحبكة وابداع الممثل . المثّال كن هاريسون (يمثله بعظمة ريتشارد (رايفوس) مثال للفنان المبدع والانسان المليء بالحيوية ، يقود عربته وسط مدينة بربرية القبح بضجيج عرباتها وضخامة الشاحنات السائرة في شوارعها . ويكون أن يصاب المثّال في حادث سيارة وينقل إلى المستشفى حيث يتم انقاذ حياته لكي يبقى مشلولاً شللاً كاملاً . على الفور يبدأ يبرم بحياته وبالحيل الطبية التي تبقيه على الحياة (الكلى الصناعية) بجسد لا حراك فيه . إنه مثّال وحياته من غير ذلك الفن لا قيمة لها . وهو لا يريد أن يحاول شيئاً آخر فهو يرى أن الحياة هي العمل وليست المحاولة وعليه فهو يرغب أن يوقف علاجه ويترك ليموت . لكن الطبيب المعالج يرفض ذلك المنطق ، فالموت قبيح ومقزز وغير مقبول . وهو يصر على الاحتفاظ بالفنان حياً ولو بالقوة .

هل هذه ميلودراما تعالج صدفة مفردة فاجعة ؟ ان عرض الآلية البربرية في شوارع المدينة في أول الفيلم يريد أن ينفي عن الحادثة صفة الصدفة ويدرجها في عداد المآسي اليومية . وعليه فالموقف منها يجب أن يكون جزءاً من وعي الفرد بنفسه وبما حوله .

الفنان المشلول واقع في قبضة الطبيب الذي يرفض تنفيذ تلك الرغبة في وقف العلاج فلا يكون أمام الفنان الا اللجوء للقضاء . اليست المبادىء الأساسية للقانون هي أحد المكاسب الحضارية الاساسية للانسان ؟ يعطي القاضي المريض الحق في رفض العلاج .. يا له من قرار فاجع .. يا له من قرار نبيل !

*

كان الفيلم الذي أشرت اليه غير مشترك في المسابقة فلم يذكر في الجوائز . أما الفيلم الذي أتكلم عنه الآن : القاتل الطيّب أو العبيط القاتل The simpleninded murderer فلم يفز إلا بجائزة عن التمثيل خصت الممثل ستلان سكارسجارد . هذا الفيلم من اخراج السويدي الفرد سون يعالج فكرة قديمة جديدة في الفكر الانساني مؤداها أن الخير فكرة شديدة البساطة لا تستعصي على فهم أي فرد مهما كانت سذاجته . أما الشر فهو فكرة ملتوية معقدة تحتاج من الفرد إلى كمية من الدماء حتى يستطيع أن يعايشها ويحتال عليها ويداورها . ولا يمكن احصاء الأعمال الفنية التي تتناول هذا الموضوع لكن على قمتها بلا شك رواية الفنان الروسي الأعظم دستويفسكي (العبيط) .

العبيط في هذا الفيلم يعيش بعد موت أمه في كنف مزارع ورأسمالي كبير في السويد في الثلاثينات من هذا القرن . شاب عنده عيب خلقي يجعله معوج اللسان . وهو طيب يقرأ التوراة بحب ويعشق الآلات والسيارات بشكل خاص ويبرع في العلم بأسرارها . ينام في الأسطبل وحيداً الا من أسراب الملائكة التي تزوره ليلاً وتحوم حول سريره البائس على موسيقى « فردي » الرائعة .

العبيط يتعذب عذاباً أليماً بما يشاهده من انحطاط الرأسمالي وبطشه بمن حوله حتى يأخذ سكين جزاره ويذبح الرأسمالي وحوله أسراب الملائكة وموسيقى فردي . تلك هي النقطة . السذاجة لا تقف مكتوفة اليدين أمام الالتواء والتعقيد . الخير يذبح الشر على أنغام رائعة وحوله الملائكة تباركه . أترى لما في هذه الفكرة من خطورة لم يحصل الفيلم على أية جائزة ؟ أترى كان الخوف من أن يعتبر الفيلم اشارة وفهماً جديداً للارهاب الذي يتسع انتشاره في أوربا ويتمتع أبطاله بتأييد صامت لدى قطاعات واسعة من جماهير الشباب خاصة ؟ .. ربما لا أستطيع أن أذكر ذلك ولا يسعني نفيه .

*

حاز على جائزة الدب الفضي لأحسن ممثل ميشيل بيكولي عن دوره في فيلم حكاية غريبة ....une étrange affaire وان كنت أنا لم يعجبني تمثيله للدور إلى حد اعطائه جائزة . لكن الذي أثارني هو القضية العامة التي يعرضها الفيلم . قضية مدير محل البيع الكبير الذي يسيطر على العاملين معه حتى يسلبهم القدرة على الحياة خارج دائرة ظله . بذلك تتحطم الحياة الزوجية للموظف الشاب لوي كولان ويذهب ليعيش في بيت المدير حيث نراه يلعب الباليه في استمتاع مع زميل آخر وهما يرتديان سراويل قصيرة . واذ يظهر الرئيس يكويان له سراويله ويلمعان أحذيته .

إن هذا الفيلم يثير التساؤل حول طبيعة بنية المجتمع الرأسمالي . إنها بنية أبوية تمجد علاقة الابن ـ الاب وتجعل أي علاقة انسانية أخرى إلى جانبها حائلة باهتة .

*

الفيلم السويسري « حب النساء L'amour des femmes» لم يفز بأية جائزة لكنه أعجبني بشكل خاص . إنه يقدم أربعة نماذج من الرجال كل واحد منهم بطل حكاية حب فاشلة . مهندس معماري ومساعده وصحفي ثم مدرس متقدم في السن . الفشل في الحب لا يعزى الى سبب واحد محدد يمكن مناقشته ، بل يعزى إلى عجز عن التحقق ، عجز عن صنع اي شيء جميل . حبيبة المهندس تريد أن تنجب منه طفلاً وهو لا يريد لأن العالم قبيح . صديقه الصحفي

تخبره أن حبها له يفوق الوصف ، يسألها عن موعد لقائهما الثاني فتقول إن هذا الموعد لن يكون أبداً . ثم ترفض كل محاولاته للاتصال بها . مساعد المهندس يقنع بعلاقات عابرة . يسافر الثلاثة لزيارة المدرس ليجدوه يعيش مرارةووحدةمطلقة . في طريق العودة يتعرف مساعد المهندس على واحدة لكن لا أحد يصدق أملاً في علاقة ناجحة .

لأي شيء يرجع هذا العجز عن الحب ؟ أشار الفيلم إلى ذلك اشارات غامضة توميء بأصابع الاتهام الى قبح المدينة المصنوع من الاسمنت المسلح الذي يعدو على كل ما في الطبيعة من جمال . أيا كان القول في الاساس المذكور ، فالحقيقة أن العجز عن الحب سمة عصرية سامّة ومدمرة . نسبة الطلاق الرسمية في برلين الغربية ٥٦ ٪ والنسبة الحقيقية قد تصل إلى ٨٠ ٪ .

*

الفيلم الهنغاري«الصلاةعلى روح الغائب Requien » يقدم تصوراً جديداً للثوري . إن عضو الحزب القديم تحول إلى بيروقراطي يستغل منصبه للاثراء . والثوري الحقيقي الذي أبلي بلاءً حسناً في مقاومة النازي يعذب في السجن حتى الموت . هذا الثوري الذي مات لم يكن من الذين يطنطنون بالشعارات النضالية التي لم يعد يصدقها أحد . بل كان رجلاً يحب الفن والأدب ويعشق المرأة الجميلة متجسدة في حبيبته السابقة . هل تبقى الثورة الحقيقية في دول الكتلة الشرقية مكبلة بالأغلال في السجون تعذب حتى يقضى عليها ؟ الفيلم يبشر بشيء آخر . الحبيب الذي مات في السجن فوض زميله الشاب أن يأخذ مذكراته من الحبيبة ليقرأها . واذ يرى الشاب الحبيبة يرى حياة الحبيب الذي مات كلها . واذ تمنحه جسدها يكون قد ملك السر. يخرج الى الدنيا بقلب جديد .

*

كان ثمة أفلام أخرى كثيرة في المسابقة وقضايا أخرى بعضها عولج معالجة سطحية أو باهتة أو مكررة حتى أنها لا تستحق من وجهة نظري أن يكتب عنها . لكنني رغم ذلك أجدني مضطراً للكلام عن فيلمين : العربي « لقاء في بيروت » والاسرائيلي « غوص متكرر Repeated dive»اللذين اشتركا في المسابقة .

الفيلم العربي اللبناني ـ التونسي ـ البلجيكي المشترك يصور مأساة المدينة المبتلاة بيروت . ويقدم وقع هذه الحال على علاقة الحب بين الشابين حيدر وزينه التي تتحول إلى حطام مثل حطام المدينة المحيطة بهذه العلاقة . شيء شديد التأثير لا لأن الفيلم جيد ، بل لأن واقع المدينة فاجع . وعن هذه الفاجعة لا يقول الفيلم شيئاً ، لا يقول لماذا ومن الجاني وما المصير . يثرثر حول هذه الاشياء بلا معنى . وإن قال فهو يقدم المسلحين الذين يتربصون بالناس في الطرق ويتقاضون من الناس الاتاوات .. من هؤلاء .. أي معسكر يتبعون .. لم يقل الفيلم شيئاً . وإن كان الجمهور الغربي كان لديه كل مبرر ليعتقد أن الفيلم ضد الفلسطينيين . وبعد قليل فقد الفيلم القدرة على القول ففقد المخرج حوله حلقة ليناقش الفيلم . وكانت غثاثة تقلب الامعاء . قلت لـزميل يجلس إلى جواري : يا أخي لا شك أن الفترة التاريخية التي يمر بها الوطن العربي الآن من إخراج الاستاذ برهان علوية وتمثيل الاستاذ أمين .

*

أما الفيلم الاسرائيلي فهو تمجيد فج للعسكرية الاسرائيلية (وانتصاراتها المجيدة) . ضباط الضفادع البشرية ذوو أجساد عضلية وعنف وسكر وعربدة وحولهم مومسات في الزي العسكري يقعدون في القيادة بهدف الترفيه عن الأبطال . و (الغوص يتكرر) لتنفجر سفن (الاعداء) في ميناء الاسكندرية وتصدر الصحف بالعناوين العريضة . ثم يموت (بطل) من هؤلاء لتترمل زوجته فترة قصيرة تتزوج بعدها (بطلاً) آخر على التقاليد (الاسرائيلية العريقة) .

ويصطدم الفيلم بأحاسيس جمهوري أوروبي سئم الحروب وتقزز من العسكرية وليس لديه استعداد لأن تتحول المرأة الى مجرد مومس للترفيه عن الأبطال . يحاط الفيلم بالصمت ولا يجد المسؤول الصحفي عن المهرجان الا أن يصرح بذلك وهو يقدم مخرج الفيلم في المؤتمر الصحفي . ولا تبدّد احساسات المخرج بالحرج حماس بعض المشتركين اليهود في المؤتمر الذين يهللون للفيلم ولجيش اسرائيل (الباسل) ...

قمت أوجه سؤالاً للمخرج وتركزت عليَّ العدسات والميكروفونات : كان هذا نص سؤالي : إن الفيلم تمجيد للأداة العسكرية الاسرائيلية . هذا صادم للرأي العام العالمي .. لكن المخرج يقول إن الفيلم لم يكن كافياً بالنسبة للمتفرج الاسرائيلي .. كيف أفهم اذن نفسية هذا المتفرج ؟

قال المخرج : نحن نعيش ظروفاً خاصة وجمهورنا جمهور خاص .. !

سألت مرة أخرى : هل الفليم يصور تماماً وضع المرأة في المجتمع الاسرائيلي ؟

كان ذهول وكان صخب وصريخ من جوقة الصحفيين اليهود .. واضطرت الممثلة الى أن تأخذ الميكروفون لتنفي ذلك وتؤكد أن الفيلم يتكلم عن حالة خاصة جداً ... ! أما أنا فقد خرجت فوراً ...

*

استمعت إلى النتائج شارداً . خرجت إلى الشارع . ثمة احساس بأن آلة المهرجان الرهيبة تتنفس الصعداء ، فتلك الأيام الكثيرة من الجهد الذي فوق طاقة البشر قد آذنت بالانتهاء والجوائز أعلنت . لم تفاجيء أحداً . إدارة المهرجان لها حسابات والسينما لها حسابات أخرى في طريقها الرائع لتكون أكثر فنون العصر التصاقاً بجمهور العصر . ها أنا ذا أرى الوجوه المتعبة تلك

آخر نظرة على مساء برلين قبل الرحيل . ملامح متعبة وأكتاف متهدلة بعد أيام من العمل الشاق . وهـا هم العمال يرفعون اللافتات ويفكون الأضواء . في خلال ساعة تعود برلين إلى حياتها العادية دون تلك الدوامة التي عزلتني عن الوقت وعن المدينة ذاتها .

قابلتها تحمل حقيبتها الكبيرة وكاميرتها وتسير زائغة العينين في الشارع . يبدو على وجهها الارهاق وعسر الهضم ، وبطنها متضخم من عشاء ثقيل . دعوتها إلى أن تشرب معي قهوة ، لكنها فضلت أن أذهب معها إلى الشقة التي تقيم فيها . إنها سويسرية تتكلم قليلاً من الالمانية . وهي تقيم في شقة أصدقاء لها هنا وقد تقابلنا كثيراً أثناء متابعتنا لأفلام المهرجان . الآن لا رغبة عندها للكلام عن السينما . مشغولة بخططها للوقت القادم . مكتئبة ومهمومة وغير متفائلة .

طلقت من زوجها الأول بعد زواج ست سنوات . بعده عرفت صديقاً كانت مجنونة به لكنه تركها بعد ستة شهور دون كلمة . دخلنا الشقة . مبنى قديم واسع الغرف شاحب الإضاءة ضغط على قلبي . صور الوالدين العجوزين على الجدران . الكراسي المتربة وبقايا الشموع . مكتب ابن الاسرة الشاب . ألبوم صور من الجلد مليء بصور الشذوذ . كدت أتقيأ أمعائي . أغلقته في صمت . الفتاة جلست قبالتي تحكي .

تعرفت على شاب في المهرجان . لم تسأله عن شيء لكنه أفهمها بكل الطرق أنه غير متزوج وانه يحبها . وتعلقت به . اتصلت ببيته في التليفون عرفت أنه متزوج وله بنت . تحكي مغمضة العينين كأنها بومة تنعب . لم أستطع أن أحتمل أكثر . استأذنت لأمشي اتسعت عيناها دهشة .

أسلمت نفسي للشارع . في مثل هذا من العام الماضي ودعت صديقتي . وقفت في شرفة غرفتها في الفندق تلوح لي بيدها حتى انحرف بي الشارع . هأنذا يحمل قلبي كآبة الواقـع وكآبـة الذكرى .

هنا في هذا المكان لمحت الإعلان عن المهرجان للمرة الأولى . كانت معي زوجتي . نظرت الي نظرة عاتبة . أحس نظرتها الآن وهي بعيدة . من الذي سوف يلصق على هذا الاعلان اعلاناً آخر عن شيء آخر ؟ المرارة ستبقى في قلبي وروحي مدة أطول ، تصاحبني وأنا اكتب بضع كلمات عن مهرجان فات .

عبد الحكيم قاسم

برلين الغربية